أثَرُ المعرفة الخلفية في الربط بين الآيات القرآنية
(نماذج تطبيقية من علوم القرآن)

The effect of basic knowledge on the connection between Quranic verses (Applied models of the sciences of the Koran)

محمّد ياسين بربيط*
المركز الجامعيّ مغنية تلمسان (الجزائر)، yassineqtr7@gmail.com
عبّاس لعشريس
المركز الجامعيّ مغنية تلمسان(الجزائر)، ibnjini1976@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2021/04/05 تاريخ القبول 2021/12/24 تاريخ النشر2022/03/31

ملخص:

يهدفُ هذا البحث إلى عرض الجهود المبثوثة في علوم القرآن التي سعت إلى الكشف عن أسرار ترابط الآياتِ القرآنية وانسجامها في ضوء أحدث مناهج تحليل الخطاب، ونقصد بذلك مفهوم المعرفة الخلفية التي اعتمدها محلّلو الخطاب في الكشف عن الكيفية التي تترابط بها الخطابات والنّصوص. وينتقي البحث من مصادر علوم القرآن والتفسير بعض النماذج من الآيات القرآنية وكيفية انسجامها ما يتوافق مع ما وصل إليه منهج تحليل الخطاب ولسانيات النّص، وقد انتهى البحثُ إلى أنّ المنشغلين بعلوم القرآن لم يغبْ عنهم مفهوم المعرفة الخلفية؛ وذلك حينَ سَعَوْا إلى البحث عن الآيات التي خَفِيَ فيها وجهُ الترابط والتماسك.

الكلمات المفتاحية: الربطُ التداوليّ – المعرفة الخلفية – علوم القرآن.

Abstract: This research aims to present the documented efforts in the sciences of the Quran which sought to uncover the secrets of the interdependence and harmony of the Quranic verses in the light of the latest methods of discourse analysis, and by this we mean the concept of the basic knowledge adopted by discourse analysts to reveal how discourses and texts are interdependent.Our research selects from the sources of Quranic science and exegesis some examples of Quranic verses and how they are consistent with what the approach to discourse analysis and text linguistics has achieved. the sciences of the Quran did not lose sight of the concept of basic knowledge when they sought to seek out the verses that were hidden there: the face of coherence and cohesion.

Keywords: deliberative link - basic knowledge - sciences of the Koran.

1. مقدمة:

أدرك المنشغلون بدراسة النّصوص والخطابات وكيفية انسجامها أنّ أدوات الربط اللغوية غيرُ كافية ليكون النّصُ مترابطا، وهذا الأمر جعلهم يتخذون مقاربة أخرى يثبتون من خلالها انسجام النّصوص والخطابات بحيث لا تعتمد على لغة النّص أو الخطاب ولا يكون فيها أيُّ أثر لوسائل الاتساق اللغوية، ومعلومٌ أنّ علماء القرآنِ قد

* المؤلف المرسل

اهتمّوا بدراسة أوجه المناسبة بين الآياتِ، وقد وقفوا عند كثيرٍ من الآيات التي لم يَبِن لهم وجه الاتصال بينها، فجاء هذا البحث ليُبيّن طرائقهم في تعليل هذا الترابط الخفيّ بين الآياتِ، ثم ربط منهجهم في ذلك بعمل محلّلي الخطاب حديثا، وينطلق البحث من الإشكالية التالية: كيف علّل علماء القرآن الترابط بين الآيات من غير أن يظهر ذلك الترابط في النص القرآني؟ وما هي مظاهر الاستعانة بمفهوم المعرفة الخلفية عندهم؟ وتأتي أهمية البحث في أنّه يربطُ ما توصلت إليه اللسانياتُ النصيّة الحديثة وتحليل الخطاب بجهود علماء القرآن قديما.

2. تعريف الترابط التدّاولي:

الترابطُ والانسجام أمرانِ يقوم بهما متلقي النّص من غير اعتماد على الأدوات اللغوية، وبهذا أصبح مفهوم الترابط النّصي متنقلا من "كونه جاريا بين وحدات النّص مدلولا عليه بقرائن ومؤشرات لغويةٍ إلى كونه عملًا ذهنيًّا ينشئ به الشخصُ ذلك الترابط إنشاءً إيجابيا أثناء التمثيل الذهني لمضمون النّص، فالانسجام كائن في التمثيل، وليس في الحامل اللغويّ المنجز".[1] وانطلاقا من هذا أصبح يُفرَّقُ بين الترابط الدّلالي القائم على لغة النّص والترابط التدّاولي الذي يعتمد على معلومات خرج النّص.

يُذكر الترابط التداوليُّ في ميدان لسانيات النّص وتحليل الخطابِ مقرونا بمصطلحي الترابط الدّلاليّ والترابط الشكلي، فإذا كان الترابط الشكليُّ يُعنى بالعلاقات الشكلية المحققة للتّواصل الشكليّ في نصّ ما، والترابطُ الدّلاليّ برصد العلاقات المعنوية بين أجزاء نصٍ أو خطابٍ ما، فإنّ الترابط التدّاوليّ هو تلك "العلاقة بين النّص وما يحيطُ به خارجيّا، إذ يُسمّى ترابط عناصر النّص فيما بينها تماسكاً دلاليا، ويُسمّى ارتباطُ النّص مع السياق غير اللغوي تماسكًا تداوليًّا".[2] ويُقصد بالسياق غير اللغويّ مجموع الملابسات التي تحيط بنص من النّصوص، وتُقاسُ درجة التماسك والترابط في النّص بالنسبة للسياق الذي يظهر فيه.

إذن الترابطُ التداوليّ هو "الربط الذي يربط النص بمنشئه، النّص في أصله الشفهي كوحدة في إطارها المرجعيّ، إذ تتوفر فيه العنصر الواحد والمكان الواحدُ والظروف السياقية الخاصة، وهذا ما يوفر دعما للتماسك التداوليّ، لا يمكن أن يتوفر في النّص المكتوب"،[3] ولأنّ التدّاولية "تولي اهتماما بالغا بالمتلقي بوصفه الطرف الأخر في عملية التواصل اللغوي وفي المحادثة وغيرها من أشكال التواصل اللغوي، وأنّ هذا الطرف يشكل بوجه ما سلطة على المتكلّم، إذ يراعي المتكلم ما يقتضيه حال المخاطب مهما كان شأنه الاجتماعي".[4] فإن الترابط التداوليّ يستد إلى ما يعرفه المتلقي عن عالم النّص وما يُخزّنهُ من معلومات متعلقة به، فبناءُ هذا الترابط يقومُ على استحضار تلك المعلوماتِ التّي يكون متلّقي النّص قد خزنها في ذهنه، فينتقل بذلك الترابط من كونه شيئا معطى في النّص إلى كونه شيئا موجودًا خارج النّص، وهذا ما اجتهد في بيانه وتوضيحه محاولات براون ويول، حيث ذهبا إلى أنّ انسجام النّص وترابطه يأتيه لاحقا عند تأويل المتلّقي له، فالنّاس "لا يعتمدون في فهم النّص على مجرّد ما يُقدّمه لهم من معرفة ومعلومات بل يعتمدون أيضا وربّما بدرجة أكبر على ما تختزله ذاكرتهم من معلومات ومعارف

وخبرات (معارف العالم) حيث تلتقي هذه المعرفة مع المعرفة التّي يُقدّمها النّص فيكون المفهوم المتحصّل عليه أو المحتوى المدرك إنّما هو نتاجُ تفاعل هتين المعرفتين: معرفة العالم ومعرفة النّص".[5]

3 تعريف المعرفة الخلفية:

يُقصد بالمعرفة الخلفية أنّ القارئ "حين يواجه خطابا أو نصّا ما لا يواجهه وهو خاوي الوفاض، وإنّما يستعين بتجاربه السابقة، تجمعت له كقارئ متمرس"،[6] ومن ثمّ أصبح البحث عن أسباب ترابط النّصوص والخطابات معتمدا على معرفة كلّ ما يحيط بالنّص إذ يُمثل الترابط هنا "عملية سحب للمعلومات من الذاكرة واسترجاعها وربطها بالخطاب الذي يتفاعل معه".[7]

ولغرض معرفة تنظيم المتلقي لتلك المعلومات في ذهنه ظهرتْ محاولات تكفل بها اختصاصان هما: الذكاء الاصطناعيّ الذي قدّم مفهوم الأطر والمدوّنات، وعلم النفس المعرفي الذي قدّم مفهوم السيناريوات والخطاطات، يقول محمّد خطّابي: "ولا يعني اختلاف الاختصاص أنّنا أمام نظريات متنافسة بقدر ما هي استعارات بديلة لوصف كيفية تنظيم معرفة العالم في ذاكرة الانسان وكذا كيفية تنشيطها في عملية فهم الخطاب".[8] ومعلوم أنّ إدراك ترابط النّص يندرج عموما تحت فهم الخطاب، ونعرضُ فيما يلي أهم تلك المفاهيم المنظمة للمعلومات في ذاكرة الإنسان:

1.3 الأطُر:

يُعرّفُ الإطارُ بأنَّهُ الطّريقةُ التّي يتعامل بها الإنسانُ مع وضعية جديدة فالإنسانُ "لا يعتمدُ في هذه الحالة إلى أن ينتخب من ذاكرته بنية تُسمّى إطارا، ويقوم بتكييف هذه البنية المخزنة في الذاكرة لكي تلائم الوضعية الجديدة، وذلك بتغيّير التفاصيل عند الضرورة"،[9] وممّا تجدُرُ الإشارةُ إليه أنّ نظرية الإطار لا ترتبطُ في الأصل بالظواهر اللّغوية، إلّا أنَّ بعض الدّارسين استطاع أن يستثمر هذه النظرية في تحليل الخطاب، والبحث في كيفية ترابط النّصوص والخطابات، وممّا يُمكن أن نُمثل به هنا ما يلي:

- دَفَعَ البَابَ، كَانَتِ الغُرْفَةُ خَالِيَةً.

للبحث عن العلاقة التي تربطُ جُزْئَيْ هذا المثال يسوق فيلمور قوله: "نحنُ نجعل الجملتين منسجمتين بِأنْ نفترض أنّ الهدف الذي يسعى إليه شخصٌ ما من دفع بابٍ هو فتحُ ذلك الباب، وعندما يتمكنُ من الدّخول بعد أن يفتح الباب بواسطة عمل الدّفع، فإنّهُ يكون في وضعٍ يسمحُ له بأن يُلاحِظ إنْ كانت الغُرفةُ خاليةً".[10]

2.3 المدونة:

هي مفهوم "وُضِعَ أساسًا للتّعامُلِ مع متواليات الأحداثِ، ومِن ثمّ فهي مبرمجةٌ بدقة إذ أنّها تتضمن متوالية معيارية من الأحداثِ تصفُ وضعية ما"،[11] وينظر أصحابُ نظرية المدونة إلى مفهومها "على أنّه نوعٌ من

التّخصيص لفكرة الإطار التي جاء بها **مِنسكي**، والغرضُ من هذه النظرية هي البحثُ عن كيفية انسجام الخطابِ، بل هو بحثٌ في عملية الفهم البشريّ ذاتها".[12]

وقد جُرّب تطبيقُ المدونة على الحاسوب لفهم القصص، حيثُ زُوّدَ بقصة تروي حادثة سيرِ ثُمّ طُرِحت عليه أسئلةٌ يقتضي بعضها القيامَ بنشاطٍ استدلاليّ نتيجتهُ أنّهُ إذا جُرِحَ شخصٌ وعولجَ في المستشفى وغادر دون أن يبقى طويلا فيها؛ فذلك يعني أنّه جُرِحَ جُرْحًا خفيفا، وقد توصل الحاسوب إلى أنْ يستنتجَ أنّ المصابَ جُرِحَ جُرْحًا خفيفا دون أن يَرِدَ في القصة ما يدّل على ذلك، وقد اعتمد الحاسوب على معرفته السابقة المطبقة على جزء النّص الذي واجهه.[13]

3.3 . السيانريو:

يُستَعمَلُ مفهوم السيناريو لوصف "المجال الممتد للمرجع المستعمل في تأويل نصٍ ما، وذلكَ لأنَّ المرء يُمكنُ أن يُفكر في المقامات والوضعياتِ كعناصر مُشكلة للسيناريو التأويلي الكامن خلف نصٍ ما".[14] فلو أُفتُرِضَ مثلا نصٌ موضوعه (**الذهاب إلى الملعبِ**)، فإنّ قارئ هذا النّص سيعتمدُ على تنشيط سيناريو الملعب؛ أي ما خُزّنَ في ذهنه من معرفةٍ مُكتسبة مُسبقًا من تجربة الذهاب إلى الملعبِ، وما يتصل بذلك من عناصر يتوفرُ عليها الملعبُ عادة من لاعبين وجمهور وحَكَمٍ وفريقٍ تدريبيّ، وأرضية لعبٍ، وكرةٍ وما إلى ذلك، ويتضمنُ سيناريو الذهابِ إلى الملعبِ ترتيبا متسلسلا ومتتابعا للأحداث مثل الدّخول إلى الملعب والجلوس في المدرجاتِ وانطلاق المباراة، وتسجيل الأهداف وصولًا إلى انتهاء المباراة والانصراف من الملعب، ولا يجب أن تُذكر العناصرُ المتصلة بالسيناريو جميعُها، لكنّ تَمَثُّلَ القارئ الذهني لنصٍ يتناولُ موضوع الذهابِ إلى الملعبِ لا بُدّ أن يُخصص لكل عنصرٍ من تلك العناصر المكونة للسيناريو، سواءً ذُكِرَت في النّصِ أم لم تُذكر.[15]

4.3. الخطاطات:

تُعرَّفُ الخطاطاتُ بأنّها "بنْيَاتٌ معرفية تضّم توجهاتٍ حتمية تُهيّئُ المجرب لتأويل تجربةٍ ما بطريقة ثابتة، وكمثال على ذلك الأحكام العُنصرية المسبقة التي يُصدِرُها جنسٌ بشريٌّ مُعيّنٌ على جنسٍ آخر مثل صورة العربيّ التي تشكلت لدى الأمريكيّين، ومن ضمن مكوّناتها أنّ العربيّ إنسانٌ جاهل وهمجيٌّ وكسولٌ...".[16] والخطاطةُ أداةٌ معينةٌ في تفسير عمليات ترابط الخطابِ وتأويله، ويُمكنُ أن نُوضّح ذلك بما يلي:

أ- لقد تأخرت سيارةُ الأجرةِ، لم يتمكن **السائقُ** من العثور على المنزل.

ب- لقد تأخرت سيارةُ الأجرةِ، لم يتمكن **الملّاحُ** من العثور على المنزل.

فالمثال (أ) جُزآهُ مترابطانِ ومنسجمانِ؛ وذلك أنّ خطاطة سيارة الأجرة تقتضي أنّه لا بدّ لسيارة الأجرة من سائق، وأنّها تُقلّ الأشخاص من منزلهم، أمّا المثال (ب) فيظهر غير مترابط لأنّ خطاطة (سيارة الأجرة) لا تسمحُ بأن يتولى الملّاحون قيادتها.[17]

وينتهي براون ويول إلى أنّ الخطاطات تُزوّدُ محلل الخطابِ بطريقةٍ لتفسير الخطاب وتأويله، وهي بذلك وسيلته لتمثيل تلك المعرفة الخلفية التي كنّا نستعملها كلّنا، ونفرضُ أنّ الآخرين يستطيعون استعمالها أيضا، حين ننتجُ أو نُؤوّلُ الخطاب.[18]

وممّا يلاحظُ أن هذه النظريات وإن تعددت أسماؤها ومفاهيمها إلّا أنها تبدو متقاربة بنحوٍ لا نستطيعُ أن نضع بينها حدودا كونها تعتمد كلُّها على المعرفة القائمة في ذهن القارئ.

4 مظاهر الاستعانة بالمعرفة الخلفية في علوم القرآن لتحقيق الربط بين الآيات:

تزخرُ كتب علوم القرآن والتفسير بمباحث الربط والانسجام بين الآيات، ومباحثُ الترابط بين الآياتِ والسور إمّا أن تكون منثورة في علوم شتّى وإمّا أن تكون مجموعة في علم معيّن، ومن أهمّ العلوم التي التي عُنِيت بالترابط بين الآيات في علوم القرآن: علمُ المناسبة، وعلم مشكل القرآن وموهم التناقض، وفي هذين العلمين برزت جهود العلماء في بيان أوجه الانسجام والترابط في النّص القرآنيّ، وقد انتهى الباحثون في علوم القرآن إلى أنّ العلاقات والروابط الجامعة بين آيات القرآن نوعان:

"**النوع الأوّل**: علاقات داخلية ماثلة في المنطوق، وقد تكون مفهومة مستنتجة كالعموم والخصوص، والحسيّة والخيالية، وقد تكون مادية ملموسة كالعلاقات الأسلوبية، وبهذا يمكن للمتلقي أن يدرك العلاقة بين الآية الحالية وما يليها، أو ما يسبقها، كما يمكنه معرفة علاقة أوّل السورة بآخرها بناء على منهج محدد.

النوع الثاني: علاقات خارجية ماثلة في التلازم بين النّص اللغوي والمناسبة التاريخية التي هي سبب وجود النّص، فإدراك المناسبة يقتضي معرفة السياق الخارجيّ، وربط الآية / الآيات به".[19] والنوع الثاني هو الذي سيركز عليه البحث في الأمثلة التالية:

1.4 الربط بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾،[20] وقوله تعالى: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ**﴾،[21] وقوله تعالى: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾.[22]

يقول ابن عبّاس مُبيّنا وجه ارتباط هتين الآيتين: "نزلت في المنافقين ذلك أنّه ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثَلَيْن للمنافقين قوله: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا)، وقوله (أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ) قالوا: الله أجلّ وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا)".[23]

فالأمر الذي يُفهِمُ وجهَ الارتباط والتماسك بين هذه الآيات لا يعود إلى سطح النّص أو دلالته، بل تُساهِم المعرفة الخلفية المتعلقة بعلم أسباب النزول في فهم وجه الترابط بين هذه الآيات بشكل أوضح.

2.4 الربط بين قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾،[24] **وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾**،[25] **وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾**.[26]

وهذه الآيات القرآنية يمكن للقارئ أن يظّن أنَّ وجه ارتباطها ببعضها راجعٌ إلى وجود علاقة لغوية دلالية، أو يفهم أنّ الآيات مستقلة عن بعضها، فإذا اطّلع على أسباب نزولها انكشفَ لهُ أنّ العلاقة خارجية (مقاميّةٌ).

فعلم أسباب النزول يُبيّنُ العلاقة بين هذه الآية الأولى وبما ورد في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى: **﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾** وعلاقتها كذلك بالآية الواردة في سورة النّساء وهي قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾**، فالآياتُ وإن بدا الرابطُ بينها لغويا حيث يدور موضوعها جميعا حول (**مال اليتيم**) إلّا أنّ أسباب النزول تؤكدُّ أنّ الرابط ذهنيّ أكثر منه لغويّ؛ وذلك "أنّ الله عزّ وجل لمّا أنزل **﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾**، وقولَه تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾** "انطلق مَن كان عنده مالُ يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه وجعل يفضُل الشيء من طعامه، فيحبس له حتّى يأكله أو يفسد، واشتدّ ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، فنزلت الآية"؛[27] وهي قوله تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**.

فالجامع كما يُفْهَمُ من قوله هو جامعٌ خارجيّ متعلّق بفهم المتلقي، وإن بدا في ظاهره أنّه لغويّ (**داخل النّص**)؛ حيث كانت أعمال المؤمنين النّاجمةُ عن فهم الآيتين اللتين في سورة النساء والأنعام سببا في نزول الآية التي في سورة البقرة وفق ما يلي :

- نزول الآيتين اللتين فيهما الأمر بعدم الاقتراب من مال اليتيم.
- عزل المؤمنين لطعام الأيتام من طعامهم.
- فساد الطّعام وحصول المشقة.
- نزول الآية التي فيها الأمر بمخالطة اليتامى وتذكير المؤمنين بالإصلاح وتجنّب الفساد.

3.4 . الربط بين قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾،[28]

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[29]

يورد المشتغلون بعلم أسباب النزول جامعا مقاميا بين هتين الآيتين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "لـمّا أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ثمّ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقالوا: كلّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهادُ والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم؟ – أراه قال: سمعنا وعصينا– قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير، فلمّا اقترأها القومُ وجرت بها ألسنتهم أنزل الله هذه الآية".[30]

4.4 . الربط بين قوله تعالى: **﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾**،[31] وقوله تعالى: **﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾**.[32]

يجيب ابن عبّاس دافعا التعارض الذي قد يُفهم بين هاتين الآيتين قائلا: "إنّهم لما أرادوا يوم القيامة، وأنّ الله يغفر لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب، ولا يغفر شركا، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم، فقالوا: (والله ربّنا ما كنّا مشركين)، فختم الله على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك (يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا)"،[33] فالأمر الذي جعل الجمع بين هتين الآيتين سائغا وواضحا دون أن يعرض لذهن القارئ تناقض أو تعارض أو اختلاف هو استحضار السياق الخارجي الملازم لنزول كلّ آية فنشأ عن ذلك ترتيب ذهنيّ منسجمٌ مترابط، وممّا ساعد في ذلك الاستعانة بسيناريو **يوم القيامة** :

- طمع المشركين في مغفرة الله تعالى: (والله ربّنا ما كنّا مشركين).
- ختْمُ الله على أفواههم لتتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.
- بعد ذلك يودّ الذين كفروا لو أن الأرض تسوى بهم ولا يكتمون الله حديثا.

فزال بذلك الإشكال المتوهم بين الآيات.

5.4 . دفع التعارض بين قوله تعالى: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾،[34] **وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.**[35]

قد يعرضُ للقارئ المبتدئ الذي لا معرفة له بسياق كلّ آية تناقضٌ بين هتين الآيتين؛ وذلك لوجود كلمتين متناقضتين (لا يتساءلون) في الآية الأولى و(يتساءلون) في الآية الثانية، ودفع هذا التعارض يسوقه ابن عبّاس في جوابه قائلا: "**إنّه (إذا نُفِخ في الصور فصعق من في السّموات ومن في الأرض إلّا من شاء الله، فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون، ثمّ نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض**

يتساءلون)"،[36] فابن عبّاس يستحضر في جوابه أحداث يوم القيامة مرتبةً (النفخ في الصور)، ثمّ يربطُ كلّ آية بحدثها المناسب فتبدو حينئذ الآيتان منسجمتان مترابطتان لا تعارض بينها ولا تناقض.

4. 6. ربط قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾[37] بقوله تعالى: ﴿أَمِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾،[38] وبقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾.[39]

أُشكِلَ على سائلٍ الجمع بين هذه الآياتِ، فيجيبه ابن عبّاس قائلا: "**وأمّا قوله: (خلق الأرض في يومين)، فإنّ الأرض خلقت قبل السّماء، وكانت السماء دخانا، فسواهنّ سبع سماوات في يومين بعد خلق الأرض، وأمّا قوله: (والأرض بعد ذلك دحاها)، يقول: جعل فيها جبلا، وجعل فيها نهرا، وجعل فيها شجرا، وجعل فيها بحورا**".[40]

فجواب ابن عبّاس عن سرّ الجمع بين هذه الآيات جميعا ودفع التناقض عنها معتمدٌ في أغلبه على استحضار الأحداث المترابطة المناسبة للآيات وربط كلّ آية بما يلائمها من الأحداث، وهذا العمل يقترب بشكل واضح من منهج تحليل الخطاب ففي الدّرس الحديث إذ يعدّ المقام الخارجيّ والبنية الذهنية أهمّ الأركان في انسجام النّص والخطاب وترابط وحداته إذا غاب عنه ما يسوّغ ترابطه داخليا.

4. 7. ربطُ بين الكلمات التي جاءت في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.[41]

لعلّ القارئ وهو يقرأ هذه الآية يتساءلُ عن سرّ الجمعِ بين الإبل والسماء والجبال والأرضِ، فكيف استطاع علماءُ القرآن أن يُسوّغوا الجمع بين هذه الأشياء التي تبدو متباعدة؟

وعند البحث نجد أنّ علماء القرآن ربطوا ما جاء في هذه الآية بما خَزنتهُ أذهانهم، واستطاعوا أن يجدوا لها رابطا ذهنيّا؛ إذ الجمع بين هذه الأشياء سائر على "مجرى الإلف والعادة بالنسبة لأهل الوبر، فإنّ كلّ انتفاعهم في معايشهم من الإبل فتكون عنايتهم مصروفة إليها ولا يحصل إلّا بأن ترعى وتشرب وذلك بنزول المطر وهو سبب تقلب وجوههم في السماء، ثمّ لا بدّ لهم من مأوى يأويهم وحصن يتحصنون به، ولا شيء في ذلك كالجبال، ثمّ لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها، فإذا نظر البدويّ في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور".[42] فالجامع الذي يستطيعُ من خلاله القارئ أن يربطَ عناصر هذه الآيةِ هو استحضارُ البيئة المناسبة؛ وقد أجاد خطّابي حين مثّل لهذا التحليل بما يلي:

المصدر: خطّابي محمّد، لسانيات النّص، ص125

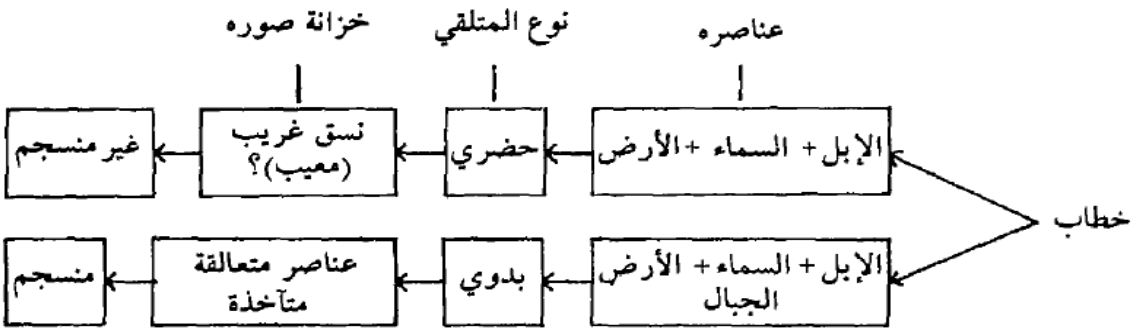

8.4 الربطُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.[43]

يقع الإشكال في هذه الآية في مستوى العلاقة بين قوله تعالى: (وَإِذِ اِسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ) وقوله تعالى: (فَقُلْنَا اِضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ)، فطلبُ السُقيا يكون الجواب عنه الإرشادُ إلى أماكن المياه ومواقعها، لكنّ الجواب لم يأتِ كذلك بل جاء أمرًا بضرب الحجر وهنا يقعُ الإشكال.

يقول ابن عاشور مجيبا عن هذا الإشكال: "وذلك لأنّ الانفجار مترتب على قوله لموسى: (اضرب بعصاك الحجر) لظهور أنّ موسى ليس ممّن يُشكّ في امتثاله، بل ولظهور أنّ كلّ سائل أمرا إذا قيل له افعل كذا أن يعلم أنّ ما أمر به هو الذي فيه جوابهُ، كما يقول لك التلميذُ: ما حكم كذا؟ فتقول: افتح كتاب (الرسالة) في باب كذا".[44]

فابن عشور حاول أن يلتمس علاقةً بين جُزْأَيْ هذه الآيةِ مُستحضرًا الإطار الذي تترابط فيه العناصرُ في الذهن، إذ يقتضي ذلك الإطارُ أنّ لكلّ سؤالٍ جوابًا مستعينا ما يعرفه عن طبيعة المتكلّم والمخاطب (الله) و(موسى) إذ لا يُمكن لموسى النّبي أن يشكّ في امتثاله أمر ربّه بالضرب.

4. 9 الربط في قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾.[45]

يقول السيوطي متحدّثا عن المناسبة في هذه الآية: "إنّ وجه مناسبتها لأوّل السّورة وآخرها عسِرٌ جدًّا، فإنّ السورة كلّها في أحوال القيامة"،[46] ولإزالة هذا الإشكال يورد علماء القرآن ما يجعل الآية مترابطة مع ما قبلها، ومن ذلك ما ذكروا: "أنّه تعالى لما ذكر القيامة، وكان من شأن من يقصّر عن العمل لها حبّ العاجلة، وكان من أصل الدّين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة، فنبّه على أنّه قد يعترضُ على هذا المطلوب ما هو أجلُّ منه، وهو الإصغاءُ إلى الوحي ... فأمر بألّا يُبادر إلى التحفظ، لأنّ تحفيظه مضمون على ربّه".[47] وما يزيدُ هذا التعليل وضوحًا قولهُم: "ولا يخفى ارتباطُ الجملة أو الجمل القرآنية بسائر عناصر النّص التي هي جزء منهُ إلّا في نحو (التربية المعترضة)؛ فقد جاءت هذه التربية معترضة في سورة القيامة كما يُرَبّي المعلّم الطالب ضمن درس من العلم فينهاه أو يأمره حول واجب من واجبات المتعلّم أو طرق التعلّم، ثمّ يستمر معه في متابعة درسه الذي يلقيه عليه".[48]

فربطُ هذه الآية المعترِضة في سورة القيامة قائم على استرجاع علماء القرآن لسيناريو (التعليم)؛ فالمعلّم وهو يدّرس طلابهُ قد يعترضُ درسه ما يمنع سَيْرَهُ من أحد طلّابه، فينقطِعُ المعلّم عن درسه لينبّه ذلك الطالب عن عدم الانشغال بغير الدّرس ينتهي المتعلم عن ذلك.

هذه الأمثلة وغيرها التي ترد منثورة في كتب علوم القرآن وخاصة علم أسباب النزول تزيدُ اليقين والإيمان بأهمية هذا العلم الذي به يُكشف المعنى المراد على الوجه الحقّ، وبه كذلك يُستعان في بيان الجامع الذي يجعل الآيات القرآنية متماسكة منسجمة وإن خلت من الروابط اللّغوية الظاهرة أحيانا.

5 خاتمة:

في خلاصة هذا البحث نسجل أهم النتائج المتوصل إليها :

- لا يقتصر البحث في أوجه الترابط بين أجزاء النّص على ظاهر النّص، بل يتجاوز ذلك إلى دور المتلقي ومعرفته الخلفية في إبرازه.
- لا نَعْدِمُ في جهود علماء القرآن استعمال مفهوم المعرفة الخلفية ومفاهيم نظرياتها لبيان أوجه الترابط والانسجام بين آي القرآن الكريم.
- يُعدّ علم أسباب النزول من العلوم والمعارف التي تعين قارئ القرآن الكريم لتبيّن وجه العلاقة بين تلك الآيات التي يخفى وجه اتصالها في الظاهر.
- استطاع علماء القرآن أن يُبيّنوا وجه الترابط بين في القرآن الكريم من غير أن يعتمدوا على لغة النّص، ومن غير أن يكون لهم دراية بمصطلح المعرفة الخلفية التّي تُعدّ أساسا لتحليل مبدإ الانسجام حديثا.

الهوامش:

[1]- الأزهر الزناد، النّص والخطاب، مباحث لسانية عرفنية، مركز النشر الجامعيّ، ودار محمد عي للنشر، تونس 2011م، ص54.

[2]- رزيق بوزغاية، قيام الساعة في القرآن الكريم، مدلولية النّص ومرجعيته، أطروحة دكتوراه العلوم في اللغويات، أشواق صالح خريش، جامعة منتوري، 2013/2012، ص96.

[3]- جمعان عبد الكريم، إشكالات النص، النادي الأدبي، ط1، الرياض، 2009، ص222.

[4]- يسري نوفل، المعايير النّصية في السور القرآنية، دراسة تطبيقيّة مقارنة، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2014، ص310.

[5]- جميل عبد الحميد حسين، علم النّص وأسسه المعرفية وتجليّاته النقدية، عالم الفكر، المجلد 32، العدد02، 2003، ص15.

[6]- خطّابي محمّد، لسانيات النّص: مدخل إلى اسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 2006، ص61.

[7]- براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة محمّد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997، ص283.

[8]- خطّابي محمّد، لسانيات النّص، ص312.

[9]- براون ويول، تحليل الخطّاب، ص28.

[10]- شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، مؤمنون بلا حدود، ط1، المملكة المغربية، الرباط، 2018م، ص151

[11]- خطّابي محمّد، لسانيات النّص، ص67.

[12]- شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص154

[13]- ينظر: خطّابي محمّد، لسانيات النّص، ص68.

[14]- براون ويول، تحليل الخطاب، ص215.

[15]- شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص 162.

[16]- خطّابي محمّد، لسانيات النّص، ص67.

[17]- ينظر: شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص160.

[18]- خطّابي محمّد، لسانيات النّص، ص69.

[19]- محمّد عبد الباسط عيد، النّص والخطاب قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، 2009، ص42.

[20]- البقرة، 26.

[21]- البقرة، 17.

[22]- البقرة، 19.

[23]- ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآنيّ دراسةٌ في العلاقة بين النّص والسياق، عالم الكتاب الحديث، إربد، ط1، الأردن، 2008، ص162.

[24]- البقرة، 220.

[25]- الأنعام، 152.

[26]- النّساء، 10.

[27]- عصام بن عبد المحسن الحميدان، الصحيح من أسباب النزول، دار الذخائر، ط1، السعودية، 1991م، ص56.

[28]- البقرة، 285.

[29]- البقرة، 284.

[30]- المصدر السابق، ص80.

[31]- الأنعام، 23.

[32]- النّساء، 42.

[33]- جلال الدّين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت لبنان، 2008م، ص475

[34]- المؤمنون، 101.

[35]- الصافات، 27.

[36]- ابن عقيلة المكّي، الزيادة والإحسانُ في علوم القرآن، جامعة الشارقة، ط1، الإمارات العربية المتحدّة، ص2006، ج5، ص198.

[37]- فصلت، 09.

[38]- النّازعات، 27.

[39]- النّازعات، 30.

[40]- جلال الدّين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص476.

[41]- الغاشية، 17-20.

[42]- محمّد عبد الباسط، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، 101.

[43]- البقرة، 60.

[44]- ابن عاشور، محمّد الطّاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، 1997، دط، ج1، ص516.

[45]- القيامة، 14-16.

[46]- جلال الدّين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص634.

[47]- المصدر نفسه، ص634.

[48]- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ، دار القلم، ط4، دمشق، 2009، ص16.